ابن بكران الحموي قاضي قضاة بغداد

٤٠٠ - ٤٨٨ هـ

محمد عدنان قيطاز

ربما كان ابن بكران الحموي المعروف بالشامي أول عالم تقدمه مدينة حماة الى بغداد حاضرة الدولة العباسية في القرن الخامس الهجري • فقد أسند اليه المقتدي بأمر الله ولاية قاضي القضاة ، وهي من الوظائف الرفيعة في الدولة ، ولا تسند عادة الا الى من كان عالماً جليل الخطر ، لا يخشى في الله لومة لائم • فمن هو ابن بكران الحموي ، وما هي مواقفه في القضاء •• ؟

يذكر أصحاب التراجم أن اسمه محمد بن المظفر بن بكران بن عبد الصمد بن سليمان الحموي ، وأن لقبه أبو بكر • وقد اقتصر ابن العماد الحنبلي على ترجمة مختصرة مرفوعة الى جده الأول بكران ، وبه شُهر • في حين يذكر ياقوت الحموي أن ابن بكران كان معروفاً بالشامي ، ومن المرجح أن هذه النسبة شاعت بعد نزوحه من حماة الى بغداد وظهور أمره فيها(١) •

وقد جاء في تاريخ ابن كثير قوله « أبو بكر الشاشي » منسوباً الى شاش من بلاد الترك ، وهذا من تحريف النساخ وأوهامهم، وعنه نقل عبد الله مصطفى المراغي ــ وهو مؤرخ معاصر ــ من غير تحقيق مؤكداً هذا التحريف بقوله « ولد بشاش » مخالفاً بذلك كل ما ذكره أصحاب التراجم(٢) •

☐ حياته العلمية :

ولد ابن بكران في حماة سنة أربعمائة للهجرة ابان خلافة القادر بالله على بغداد وخلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي على مصر • ولم تكن بلاد الشام آنئذ مستقرة سياسياً ، فقد كانت مرة تحت نفوذ الفاطميين فيخطب فيها لخليفة مصر ، وتارة تحت نفوذ العباسيين



فيخطب لخليفة بغداد ٠ وقد عاصر ابن بكران في بداية حياته أواخر أيام الفاطميين على بلاد الشام حيث خرجت حلب وأكثر بلاد الشام عن سلطتهم بعد وفاة الحاكم بأمر الله في مصر(٣) ٠

ويبدو أن أسرة ابن بكران كانت على جانب من العلم والمال ، مما أتاح له قدراً من المعرفة في علوم الدين والعربية منذ طفولته الأولى ٠ ولما شب عن الطوق نهد الى بغداد لاستكمال ثقافته الدينية ، وكانت بغداد في ذلك الوقت عاصمة العلم والدين والأدب ، ومركزاً حضارياً في الشرق العربي ينتجعه طلاب المعرفة من كل مكان ٠

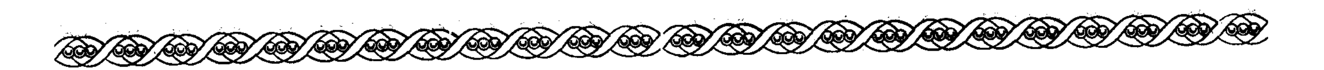
والمصادر التي بين أيدينا لا تحدد سنة رحيله الى بغداد طلباً للعلم ، غير أن سنة وفاة بعض شيوخه البغداديين تجعلنا نميل الى القول ان وفادته الى بغداد كانت قبل سنة ٤٢٨ هـ أي بعد أن بلغ ابن بكران مبلغ الرجال ، وأصبح قادراً على حضور حلقات أهل العلم ، ومجالس العلماء الأفذاذ الذين عرفتهم بغداد في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ٠ وقد ذكر أصحاب التراجم(٤) نفراً من شيوخه أمثال :

- أبي عمر عثمان بن دوست(٥) ٠
- وأبي القاسم بن بشران (٦) ٠
- وأبي طالب بن غيلان(٧) ٠
- وأبي الحسن العتيقي (٨) ٠

وقد سمع من العتيقي كتاب الضعفاء لأبي جعفر العقيلي ، وحدث به في بغداد فيما بعد ٠ كما أخذ عن القاضي أبي الطيب الطبري ، وصحبه وانتفع به حتى وفاته سنة ٤٥٠ هـ وقد جاوز المائة ٠

ويذكر محمد بن عبدالملك الهمذاني أن ابن بكران كان حافظاً لتعليقة القاضي أبي الطيب كأنها بين عينيه(٩) ٠ ويروي ابن العماد الحنبلي أن ابن بكران قال للقاضي أبي الطيب وقد عُمِّر طويلا : لقد مُتِّعت بجوارحك أيها الشيخ ٠٠ اشارة الى سلامة أعضائه وما يعتري أمثاله من الضعف والخور في حالة الشيخوخة المتقدمة ٠ ولم يكن جواب الطبري الا قولا مقتضباً يخفي في ثناياه اعتداداً بما أوتي من قوة في الجسم وبسطة في العلم ومعرفة لحقوق الله : ولِمَ لا ٠٠٠ وما عصيت الله بواحدة منها قط(١٠) ٠

ولما استكمل ابن بكران علمه الجم على مذهب الامام الشافعي ، وأصبح فيه اماماً ، تصدر مجالس الفقه والحديث في بغداد ، واجتمع حوله خلق كثير ممن وفدوا اليها يجتدون من جهابذتها ما كان ابن بكران قد اجتداه من قبل ، وقد لازم مسجده خمساً وخمسين سنة يقرىء الناس ويفقههم(١١) ، فسمع منه العراقي والشامي والحجازي والأندلسي والأصبهاني والهمداني والسمرقندي ، ورووا عنه ما كان يرويه عن أشياخه



أولي الفضل . ويذكر أصحاب التراجم نفراً من طلابه الذين أخذوا عنه ، وأصبحوا أئمة من بعده أمثال :

- أبي علي بن سكرة(١٢) .
- وهبة الله بن طاووس(١٣) .
- واسماعيل بن محمد الاصبهاني(١٤) .
- وأبي القاسم ابن السمرقندي(١٥) .

وغيرهم كثير من أكابر أهل العلم . وقد جاء في كتاب الأنساب للسمعاني قوله : روى لنا عنه كثير بن سعيد بمكة وعبدالوهاب بن المبارك ببغداد(١٦) .

ومن الواضح أن اقامته في بغداد قد مهدت له سبيل الظهور والتفوق حتى بلغ صيته مجلس الخليفة المقتدي بأمر الله ، وعندما توفي قاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني سنة ٤٧٨ هـ أشار أبو شجاع وزير المقتدي بولاية ابن بكران على القضاء ، ولكنه امتنع ، فما زالوا به حتى رضي ، وشرط أن لا يأخذ رزقاً ، ولا يقبل شفاعة ، ولا يغير لباساً ، فأجيب الى ذلك . وقد أُثر عنه قوله : ما دخلت في القضاء حتى وجب عليّ(١٧) .

وجدير بالذكر أن للقاضي لباساً خاصاً به هو « الطيلسان » يميزه من سائر الناس، وكان له راتب يقدر بحوالي خمسمائة دينار في الشهر ، وهو مبلغ رفضه ابن بكران تورعاً وتقوى ، في حين كان يلهث خلفه كثير من الطامعين ، واكتفى من المال بكراء بيت له لا يزيد عن دينار ونصف ينفقها على طعامه ولباسه ، ولم يكن طعامه سوى فتيت من الخبز في الماء مستغنياً بهما عن أطايب الطعام والشراب . أما لباسه فكان قميصاً من القطن الخشن وعمامة كتان ، يخلعهما في مجلس القضاء ويرتديهما بعد انقضائه . ويذكر محمد بن عبدالملك الهمداني أن ابن بكران لم يقبل من سلطان عطية ، ولا من صديق هدية، وعاش حياته عفيفاً زاهداً ، محمود السيرة ، نقي السريرة(١٨) .

وقد عرفت حماة عدداً من القضاة الذين رفضوا أن يأخذوا على أحكامهم أجراً معلوماً من بيت مال المسلمين نذكر منهم : القاضي ابن رزين الحموي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ(١٩) والقاضي شرف الدين البارزي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ(٢٠) وبذلك يكون ابن بكران قد سنّ سنّة في الزهادة والتقوى لمن ولي القضاء من أهل حماة ، وأصبح قدوة في العفة والعدالة والورع .

□ من مواقفه القضائية :

أجمع أصحاب التراجم على عدالة ابن بكران ونفوذ أحكامه ، وجرأته في اقامة الحق وابطال الباطل ولو أدى الى غضب السلطان . ويذكر ابن النجار أنه كان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم ، ويقيم جاه الشرع من غير محاباة أو مداراة . كما يذكر ابن كثير في تاريخه أن فقيهاً فاضلا من أهل مذهبه شهد عنده فلم يقبله ، فقال : لأي شيء ترد شهادتي



وهي جائزة عند كل حاكم الا أنت ؟ فقال له: لا أقبل لك شهادة ، فاني رأيتك تغتسل في الحمام عرياناً غير مستور العورة ، فلا أقبلك (٢١) ٠

وربما لجأ ابن بكران الى ضرب بعض المنكرين حيث لا بينة ، اذا قامت عنده قرائن التهمة حتى يقروا ، ويذكر أن في كلام الشافعي ما يدل على هذا ، وقد صنّف كتاباً في ذلك ، ونصره ابن عقيل(٢٢) امام الحنابلة في زمانه فيما كان يتعاطاه من الحكم بالقرائن، واستشهد له بقوله تعالى « ان كان قميصه قُدّ من قُبُل »(٢٣) ٠

وقد حدث مرة أن جاء الخليفة المقتدي بأمر الله الى مجلس ابن بكران وادّعى شيئاً ، وقال : بينتي فلان والمشطّب الفرغاني الفقيه ٠ فقال ابن بكران : لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير ٠ فقال الخليفة: السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك يلبسانه٠ فأجاب ابن بكران : ولو شهدا عندي ما قبلت شهادتهما أيضاً(٢٤) ٠ فما كان من الخليفة الا أن غادر مجلس الحكم غاضباً محنقاً ، مما أثار حول ابن بكران عاصفة من النقد والغضب ، وأرجف به المرجفون ، وألصقوا به الأحاديث الملفقة ، بل ان الخليفة العباسي منع الشهود من حضور مجلسه ، فاضطر ابن بكران الى التزام بيته ٠

ويبدو أن خصومه أشاعوا عزله عن القضاء ، فأعلن ابن بكران رفض العزل حتى يتحقق عليه الفسق ٠ وأتاه القاضي أبو يوسف القزويني المعتزلي مستغلا سخط الخليفة قائلا : ما عزلك الخليفة ، انما عزلك النبي ﷺ ٠ قال ابن بكران : كيف ذلك ؟ قال القزويني: لأنه قال لايقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان ، فأنت طول عمرك غضبان ٠

ولكن ابن بكران لم يحفل بسخط الخليفة المقتدي بأمر الله ، وسخط من حوله ، وظل ثابتاً ملازماً للحق ، لا يخشى في الله لومة لائم ٠٠ حتى انقاد الخليفة لحكمه ، وخلع عليه تسلية وترضية ، واستقام أمره بعد ذلك(٢٥)

☐ آثاره العلمية :

لم يذكر أصحاب التراجم أية آثار علمية لابن بكران ، غير أن ابن النجار يشير الى كتاب مفرد يحمل اسم « البيان في أصول الدين »(٢٦) كما أشار اليه اسماعيل باشا البغدادي(٢٧) ٠

ومن المرجح أن ابن بكران كان منصرفاً الى حلقات الدرس وجلسات القضاء، لا يصرفه عنهما صارف ، وهذا ما يجعلنا نقول بندرة مؤلفاته ٠ على أننا لا نستطيع أن نقطع بذلك ، لأن هجمة المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ لم تبق في مكتباتها من تراث العرب الضخم الا القليل ٠ ومهما يكن من أمر فان ابن بكران لم يأل جهداً في ايصال المعرفة الى طلابها القادمين الى بغداد من مختلف الأصقاع والأمصار كما رأينا من قبل ٠



أقوال العلماء فيه :

تحدث العلماء عن ابن بكران ، وأثنوا عليه بما هو أهل له :

- قال ياقوت الحموي : كان من صالحي القضاة ٠٠٠ وكان لا يخاف في الله لومة لائم(٢٨) ٠
- وقال ابن السمعاني : كان ورعاً زاهداً متقناً ، جرت أحكامه على السداد(٢٩) ٠
- وقال أبو علي بن سكرة : لو رفع مذهب الشافعي أمكنه أن يمليه من صدره(٣٠) ٠
- وقال الحافظ الذهبي : كان من أزهد القضاة وأورعهم وأتقاهم لله ، وأعرفهم بالمذهب(٣١) ٠

وفاته :

بقي ابن بكران في ولاية القضاء عشر سنين ، عاصر خلالها طرفاً من خلافة المقتدي، وخلافة ابنه القائم بأمر الله ، وخلافة المستظهر بالله ، ومات في أيامه سنة ٤٨٨ هـ باتفاق أصحاب التراجم ، وعمره ثمان وثمانون سنة ، ودفن في بغداد بالقرب من ابن سريج(٣٢) ٠ وطويت بموته صفحة مشرقة من صفحات القضاء الاسلامي المجيد في ظل الدولة العباسية ٠

★ ★ ★

حواشي البحث :

١ ـ معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ ، طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ ٠ ويذكر صاحب الأنساب جده الرابع باسم « سلمان » انظر ٤ : ٢٢٩ ٠
٢ ـ البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ ، الفتح المبين ١ : ٢٦٨ ٠
٣ ـ تاريخ الخلفاء : ٤١٥ ٠
٤ ـ الأنساب ٤ : ٢٢٩ ، طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ ، معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ ، العبر ٣ : ٣٢٢ ٠
٥ ـ أبو عمر البغدادي : عثمان بن محمد بن يوسف بن دوست صدوق المتوفى ٤٢٨ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٣٨) ٠
٦ ـ أبو القاسم بن بشران : عبدالملك بن محمد بن عبدالله بن بشران بن محمد الأموي مسند وقته ببغداد : توفي سنة ٤٣٠ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٤٦) ٠
٧ ـ أبو طالب بن غيلان : محمد بن محمد بن ابراهيم بن غيلان الهمداني البغدادي البزاز مسند العراق ، توفي سنة ٤٤٠ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٦٥) ٠
٨ ـ أبو الحسن العتيقي : أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي التاجر السفار ، المحدث ، توفي سنة ٤٤١ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٦٥) ٠
٩ ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ٠
١٠ ـ شذرات الذهب ٠ ٣ : ٢٨٤ ٠
١١ ـ البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ ٠
١٢ ـ أبو علي بن سكرة هو الحافظ الكبير حسين بن محمود بن فيّرة بن حيون الصدفي السرقسطي الأندلسي ، سمع ببغداد ودمشق ، وعاد الى بلاده بعلم جم ، توفي سنة ٥١٤ هـ (شذرات الذهب ٤ : ٤٣) ٠
١٣ ـ هبة الله بن أحمد بن عبد الله بن طاووس ، أبو محمد البغدادي امام جامع دمشق ، توفي سنة ٥٣٦ هـ (شذرات الذهب ٤ : ١٤) ٠



١٤ـ الحافظ الكبير اسماعيل بن محمد بن الفضل ، أبو القاسم التيمي الطلحي الأصبهاني ، امام في التفسير والحديث واللغة والأدب ، عارف بالمتون والأحاديث ، توفي سنة ٥٣٥هـ (شذرات الذهب ٤ : ١٠٥) •

١٥ـ أبو القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعثالمعروف بابي القاسم ابن السمرقندي • توفي سنة ٥٣٦ هـ (شذرات الذهب ٤ : ١١٢) •

١٦ـ الأنساب ٤ : ٢٢٩ •

١٧ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ •

١٨ـ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ : ١٤١ بالاضافة الى المرجعينالسابقين •

١٩ـ تاريخ حماة : ١٣٥ •

٢٠ـ المرجع السابق : ١٤٤ ، وفي مجلة التراث العربي ـالعدد ١٨ دراسة مفصلة عن حياته العلمية وآثاره •

٢١ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ •

٢٢ـ أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة ومؤلفكتاب الفنون الذي يزيد على أربعمائة مجلد، كان اماما مبرزا، خارق الذكاء ، عديم النظير • توفي سنة ٥١٣ هـ (شذراتالذهب ٤ : ٣٥) •

٢٣ـ البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ •

٢٤ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، وفي البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ لا يرد ذكر الخليفة ، ويكتفي برد شهادة المشطب بن أحمد الفرغاني •

٢٥ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ •

٢٦ـ شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ •

٢٧ـ هدية العارفين ٢ : ٧٦ •

٢٨ـ معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ •

٢٩ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ـ ٨٤ •

٣٠ـ المرجع السابق •

٣١ـ العبر ٣ : ٣٢٢ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ •

٣٢ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ وفي البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ابن شريح ، وما ذكره صاحب الطبقات هو الأشهر •

المراجع :

١ ـ الأنساب : عبد الكريم بن محمد السمعاني ـ تحقيق :عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٨٠ •

٢ ـ البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير الدمشقي ـ الطبعةالخامسة بيروت ١٩٨٣ •

٣ ـ تاريخ التمدن الاسلامي : جورجي زيدان ـ الطبعة الثانية ـ مصر •

٤ ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي ـ تحقيق : محييالدين عبد الحميد الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٦٤ •

٥ ـ تاريخ حماة : أحمد الصابوني ـ الطبعة الثانية ـ حماه١٩٥٦ •

٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي ـطبعة دار المسيرة (مصورة) ـ **بيروت ١٩٧٩** •

٧ ـ طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي ـ الطبعةالأولى مصر •

٨ ـ العبر في خبر من عبر : الحافظ الذهبي ـ تحقيق فؤادسيد ـ الكويت ١٩٦١ •

٩ ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين : عبد الله مصطفى المراغي ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٧٤ •

١٠ـ اللباب في تهذيب الأنساب : عز الدين بن الأثير الجزري ـطبعة دار صادر بيروت •

١١ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي ـ الطبعة الأولى ـ مصر١٩٠٦ •

١٢ـ هدية العارفين : اسماعيل باشا البغدادي ـ طبعة مصورةعن طبعة استانبول ـ بيروت ١٩٥٥ •

الدوريات :

١ ـ مجلة التراث العربي : العدد ١٨ كانون الثاني ١٩٨٥(مقال : شرف الدين البارزي ـ حياته العلمية وآثاره ـ محمد عدنان قيطاز) •